

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

The Role of Historical Urban Centers in the formation of the
Scholarly Shinqiti Culture" (Oualata – Tichitt – Ouadane –
Chinguetti)

♦ د/ محمد سالم ولد زيد
جامعة أنواكشوط (موريتانيا)
Salemzeid684@gmail.com

تاريخ الاستقبال: 2025/08/14 تاريخ القبول: 2025/09/15 تاريخ النشر: 2025/09/30

الملخص:

التحضر هو ظاهرة عرفت البشرية منذ عهد بعيد، و هي متمثلة في انتقال السكان من حياة البداوة القائمة على الظعن والترحال المستمرين، إلى حياة التمدن والاستقرار، وقد عرف المجال الموريتاني هذه الظاهرة منذ عهد بعيد، حيث وجدت حواضر أو مدن متعددة، اندثر بعضها بفعل عادات الزمن، ولم تبق إلا أطلاله، في حين لا يزال بعضها الآخر يصارع من أجل البقاء رغم الظروف الصعبة التي تحيط بها، وقد قامت الحواضر أو المدن المتبقية بأدوار سياسية واقتصادية مهمة في المجال الموريتاني خلال فترات زمنية مختلفة، بيد أننا في هذه الورقات البحثية سنتجاوزها، حيث سنركز على دورها في المساهمة في تأسيس الثقافة العالمية في البلاد، خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، ففي أي سياق تأسست الحواضر المذكورة؟ وماهي الأدوار التي اطلعت بها في تأسيس والمحافظة على الثقافة العالمية؟ وما هي أهم روافد وتيارات تلك الثقافة؟ الكلمات المفتاحية: الحواضر التاريخية؛ ولاته؛ تيشيت؛ وادان؛ شنقيط.

♦ المؤلف المراسل: د/ محمد سالم ولد زيد

Abstract:

Urbanization is a long-standing human phenomenon marked by the transition from a nomadic lifestyle characterized by constant movement to one of settlement and stability. The Mauritanian space has experienced this shift since early times, as evidenced by the emergence of several historical urban centers. While some of these towns have vanished due to the passage of time leaving behind only remnants others continue to persist despite challenging conditions.

These historical towns played significant political and economic roles across different periods. However, this study focuses primarily on their intellectual contribution, particularly their role in laying the foundations of Mauritania's scholarly culture during the modern and contemporary periods. The research seeks to answer key questions: In what historical context were these towns founded? What roles did they play in establishing and preserving learned culture? And what were the major sources and intellectual streams that fed into this cultural tradition?

Keywords: Ouadane; Chinguetti; scholarly culture; Mauritania.

مقدمة:

متعددة هي الحواضر التاريخية التي عرفتها بلاد (شنقيط) سابقا (موريتانيا) حاليا، حيث يحسب لها قيامها بأدوار سياسية واقتصادية مهمة في المنطقة خلال فترات زمنية مختلفة، غير أننا في هذا المقام سنتجاوز تلك الأدوار السالفة الذكر، نظرا لكونها أشبعت نقاشا سواء على مستوى الندوات أو مذكرات التخرج، فيما سيكون تركيزنا منصبا على دورها الثقافي والفكري، حيث كان لهذه الحواضر دور كبير في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية، وبناء على ذلك سنحاول من خلال هذا المقال الإجابة على الأسئلة التالية: في أي سياق تأسست هذه الحواضر؟ وكيف كانت مساهمتها في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية؟، ثم ما هي مصادر وروافد تلك الثقافة؟، وما هي أبرز مذاهبها وتياراتها؟.

1- السياق التاريخي لتأسيس الحواضر التاريخية:

من المعلوم أن المجال الشنقيطي سابقا، موريتانيا حاليا كان قد عرف قيام حواضر تاريخية منذ زمن بعيد، اندثر بعضها فيما لا يزال بعضها قائما حتى اللحظة، منها على سبيل المثال: "ولانة" و"تيشيت" و"وادان" و"شنقيط" ففي أي سياق قامت أو تأسست هذه الحواضر؟

تأسست الحواضر السالفة الذكر في سياق تاريخي تميز بمميزات من أبرزها ما يلي:

(أ) وجود التجارة عبر الصحراء: التي كانت قائمة ما بين إفريقيا الشمالية¹ وإفريقيا جنوب الصحراء²، وكان لوقوع هذه الحواضر على محاور أو طرق تلك التجارة دور كبير في ازدهارها اقتصاديا ثم ثقافيا وفكريا، لأن الثقافة لا تقوم إلا على أساس من الإنتاج، لأنها هي نفسها استهلاك بل هي تبذير، حسب ما يرى (ابروديل)، وعليه يمكننا القول بأن الثقافة الشنقيطية العالمية ظهرت في هذه الحواضر، في كنف الإزهار الاقتصادي الذي نتج عن هذه التجارة، ازدهار حمل هذه الثقافة عن طريق التجار والتجارة حتى ذاع صيتها مناطق شاسعة من البلاد.

(ب) قدوم الهجرات العالمية: التي عرفت البلاد في تلك الفترة، وقد قدمت من جهتي الشرق والغرب، فالقادمة من الشرق تمثلت في هجرة علماء (تمبكتو)³ غربا بعد تعرضهم للمضايقة من قبل ملك (الصونغاي)⁴ (السنّي علي)⁵، مع العلم أن العلماء القادمين من الشرق قد حملوا معهم مستوى من العلم وأذاعوه في بعض تلك الحواضر خاصة "ولانة"، أما الهجرة القادمة من الغرب فتمثلت في قدوم

¹ مصطلح جغرافي أطلق على دول هي: الجزائر والمغرب وتونس وليبيا.

² مصطلح جغرافي يشمل، البلدان الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى.

³ مدينة تقع حاليا في شمال دولة مالي، وقد كانت خلال الفترة الحديثة مركزا علميا وثقافيا معروفا، وكان لها كم كبير من المخطوطات النفيسة.

⁴ الصونغاي، هي مملكة نشأت في غرب الساحل الإفريقي، حكمت من 1464 إلى 1591م.

⁵ السنّي علي، هو حاكم مملكة الصونغاي من سنة 1464م إلى 1492م.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

تلامذة القاضي (عياض السبتي)¹ من بلاد المغرب، بعد سقوط الدولة المرابطية وتعرضهم للمضايقة من قبل الموحدين، وقد كان لأولئك العلماء دور محوري في إقامة حواضر تاريخية، ساهمت بشكل واضح في تأسيس وازدهار الثقافة الشنقيطية العالمية.

(ج) غياب الدولة المركزية: حيث ظهرت الحواضر التاريخية المدروسة، في ظل غياب الدولة المركزية الجامعة، حيث لم تحظ هذه الحواضر أوان تأسيسها برعاية سياسية مؤسسية، بل إنها أسست من طرف أشخاص كما سنرى لاحقا.

2- نماذج من الحواضر التاريخية:

في إطار التغيرات المتلاحقة التي عرفتها البلاد، ظهرت حواضر خلال الفترة الوسيطة وضعت بصمتها في مجال الثقافة والفكر لاحقا، وانتعشت نتيجة لوقوعها على طرق التجارة عبر الصحراء، التي كانت قائمة بين ضفتي الصحراء الشمالية والجنوبية، وازدادت أهميتها أكبر بفعل استقبالها لهجرات سواء كانت قادمة من الشرق (تمبكتو) أو من الغرب، (المغرب) ومن بين هذه الحواضر:

(أ) ولاتة: وقد تعددت التفسيرات المتعلقة بنشأتها، وذلك بسبب إعطاء المجتمع الأولوية للرواية الشفهية من ناحية، وغياب مادة تاريخية متماسكة ومدونة حولها من ناحية أخرى، وحسب ما هو متوفر من معطيات تعتبر "ولاتة" حاضرة ضاربة في القدم والأصالة، حيث أشار إليها السعدي في سياق حديثه عن ازدهار (تمبكتو) الذي جاء على حساب "بيرو" ولاتة قديما، فكانت عمارة تمبكتو خراب بيرو²، كما جاء ذكرها على لسان ابن بطوطة الذي زارها في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وكانت ملاحظته حولها من أهم الوثائق،

¹ هو أبو الفضل عياض موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي المالكي، توفي سنة 544هـ.

² ولد السالم، حماء الله، تاريخ موريتانيا، العناصر الأساسية، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، ص 165.

التي تحدثت عن المدينة خلال العصر الوسيط¹، وقد مرت هذه الحاضرة بثلاث تسميات هما: "بيرو" في الفترة الأولى ثم "إيولاتن" في الفترة الثانية، ثم "ولاتة" في الفترة الثالثة، وذكر الخليل النحوي أنها كانت مزدهرة قبل (تمبكتو) التي توافد علماؤها صوب ولاتة منذ 873هـ فوجدوا الأمن والطمأنينة والاستقرار.. وكان من بين هؤلاء العلماء يحيى الكامل المحجوبي² الذي تذكر بعض الروايات أنه هو المؤسس لهذه المدينة، يقول الطالب أبوبكر المحجوبي "يحيى الكامل جدنا الكبير هو الذي قدم إلى (ولاتة) في القرن الخامس الهجري، ومعه ابنه محمد وأخرجها منها أهلها بالقهر الرباني والفتح الحمداني"³.

بينما تذكر روايات أخرى، أن نشأة المدينة ترتبط بالشيخ أحمد البكاي حيث طرد الوحوش المفترسة من محيطها مما جعل الأهالي يطالبونه بالإقامة بينهم، وقد لعبت (ولاته) أدوارا متعددة الأبعاد منها ما هو سياسي واقتصادي وثقافي، مع أننا سنركز على البعد الثقافي لها، حيث استفادت كثيرا من الهجرات القادمة من (تمبكتو) بعد تعرضها للخراب، كما هاجر إليها علماء من فاس وتلمسان ومراكش، وذلك ما جعلها تعرف نهضة فكرية واضحة المعالم، أصبحت بموجبه من أهم عواصم الفقه المالكي، فعرفت المدارس العلمية المختلفة، وكان من أشهرها محظرة أهل سيدي عثمان التي احتضنت طلبة العلم من شتى البقاع، ومن أهم أعلامها عبد الله بن عمر، العالم والفقيه المتوفى في فاتح شعبان 1006هـ، وعبد الرحمن بن القاضي محمد، والذي أخذ عنه ابن عمه الفقيه الحاج احمد اند عبد الله بن سيد أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن

¹ ولد أبيده، أحمد مولود الهلال، المدن الموريتانية العتيقة، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق، 2014، ص 67.

² النحوي، الخليل، بلاد شنقيط المنارة الرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987 ص 63.

³ ولد أبيده، أحمد مولود الهلال، مرجع سابق، ص 74.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

الفقيه عثمان النحوي المؤلف والشاعر المتوفى 1073 هـ¹، وقد قال عنها أحمد الأمين الشنقيطي "مدينة مشهورة فيها علم وصلاح"².
(ب) "تشت": تعد من بين الحواضر القديمة التي عرفتها البلاد، حيث يذكر بعض الباحثين "أنها كانت في الأصل قرية صغيرة "للسونكيين" الوثنيين تدعى "شيتو" غير بعيدة من موقع تشيت الحالي³، وذلك قبل وصول البربر إليها في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وحسب ما هو رائج من خلال الروايات الشفهية فإن تأسيس المدينة الحالية، قد تم سنة 536هـ، على يد الشريف عبد المؤمن التشتي الذي أخذ عن القاضي السبكي، وحمل علمه إلى بلاد الشنقيط⁴، وحسب الروايات الشفهية فإن عبد المؤمن قد طلب من سكان قرية "شيتو" البناء بالحجارة، فلم يلبوا طلبه، فما كان منه إلا أن ارتحل عنهم، ونزل غير بعيد من قريتهم، وقام بتأسيس (تشت) التي عرفت ازدهارا اقتصاديا كبيرا خلال القرن التاسع هجري الخامس عشر الميلادي، وذلك بفعل موقعها كمحطة على مسالك القوافل الرابطة بين منجم "ملح الجلد" شمال غرب آدرار، ومنطقة ضفاف نهر النيجر⁵،

وعلاوة على ازدهارها التجاري كحلقة وصل بين منجم الجلد شمالا وضاف نهر النيجر جنوبا، فقد عرفت المدينة ازدهارا ثقافيا كبيرا، حيث أخذت نصيب الأسد من المخطوطات، التي شملت جوانب متعددة من العلوم الدينية كالفقه والحديث، فضلا عن الفتاوى والنوازل، وذلك ما ترجمه مقولة (الخليل

¹ ولد حامدون، المختار، حياة موريتانيا، ج2، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، ص 211
² الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مؤسسة الحانجي، ط1، مصر 1911، ص 442.

³ ولد أيده، أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة، تونس، 2001، ص 184.

⁴ النحوي، الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 69.

⁵ ولد أيده، أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، مرجع سابق، ص 186.

(النحوي) و"تشيت) اليوم هي أوفر المدن القديمة نصيبا من المخطوطات"¹، وزيادة على ذلك فقد أنجبت (تشيت) العديد من العلماء ممن لهم ذكر من أمثال: أبو بكر الطفيل المسلمي، والحاج الحسن ولد أغبدي الزيدي، و حماه لله ولد المختار الشواف المسلمي المعروف بـ "امباله"، ومحمد ولد فاضل الشريف وأحمد الصغير ولد انبوجه، والعلامة محمد المختار ولد امباله.²

(ج) وادان: كسابقاتها "ولاتة" و "تشيت" تعددت الروايات المتعلقة بتاريخ تأسيس (وادان)، إلا أن الرائج منها والمعتمد هي الرواية القائلة بأنها كانت نتاجا للهجرات العاملة التي عرفها المجال الموريتاني بعد سقوط الدولة المرابطية في المغرب، حيث يرى البعض أنها ظهرت مع (تشيت) في نفس الفترة 536 هـ، وذلك على أيدي رجال من تلامذة القاضي "عياض السبتي" قدموا من الحج وهم "الحاج عثمان الأنصاري، والحاج يعقوب القرشي، والحاج علي الصنهاجي، بينما تعزوا روايات أخرى نسبهم إلى الأمويين، وإلى بني مخزوم"³، وقد عرفت (وادان) ازدهارا تجاريا نتيجة لموقعها الجغرافي الذي مكّنها من التواصل مع "درعه" و"سجلماسة" في الشمال، كما كان لها تواصل مع "تنبكتو" جنوبا عن طريق (ولاتة) و(تشيت)، الأمر الذي جعل منها حلقة وصل بين الشمال والجنوب ومحطة تصدر منها البضائع في الاتجاهين، فإلى الشمال كانت تصدر "المواشي والمصنوعات الجلدية، والذهب، والتوابل .. بينما كانت يصدر للجنوب الملح، والتمور، والأقمشة، والمصنوعات المعدنية"⁴، وعلى الصعيد الثقافي استفادت وادان من مقوماتها الاقتصادية لتكون حاضرة للعلم والعلماء، لدرجة أصبحت معها أول مركز علمي بعد أزوكي، حيث ألف فيها ثاني أقدم كتاب موريتاني بعد كتاب الإشارة في تدبير

¹النحوي (الخليل)، بلاد شنقيط موريتانيا أرض المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 70.

² ولد بيه، محمد المحجوب، موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين للنشر والتوزيع، ط1، 2016، ص 56.

³ ولد أيده، أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، مرجع سابق، ص 182.

⁴ النحوي، الخليل، بلاد شنقيط موريتانيا أرض المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 71.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

الإمارة للإمام الحضرمي وهو كتاب "موهوب الجليل في شرح مختصر خليل
"لمحمد ولد أحمد ولد أبي بكر الحاجي، الذي كان حيا سنة 933 هـ¹، وقد ذكر
الخليل النحوي نقلا عن الطالب أحمد بن اطوير الجنة أنه "كان بوادان 40 دارا
متوالية في كل منها عالما ضليع"²، وهو ما جعل منها قبلة لطلبة العلم الذين
توافدوا إليها من حواضر مختلفة فهي بذلك كما قيل عنها كانت، وادان : واد من
تمر ، وآخر من علم.

د) شنقيط: لم تعرف البلاد حاضرة ذاع صيتها كشنقيط، التي أصبح اسمها
خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر علما على سائر البلاد، وقد تأسست
سنة 660هـ على أنقاض "آبير" التي كانت موجودة سنة 160هـ، وفي ذلك يقول
صاحب الوسيط "ثم لم تزل عمارة شنقيط تنمو وتضمحل عمارة "آبير" إلى أن لم
يبقى فيها داع³، وحسب الروايات المحلية فإن شنقيط، قد تأسست على أيد رجال
من بينهم: محمد قلى جد قبيلة "لقلال" ومعه رجال من قبيلة إدوعلى.. تقاسموا
الرئاسة والخطط الدينية مدة طويلة⁴ في المدينة التي لم يخرج أهلها عن تقاليد
الإجماع، وكغيرها من الحواضر استفادت "شنقيط" من وقوعها على مسالك
التجارة عبر الصحراء، مما جعلها تعرف ازدهارا اقتصاديا كبيرا، تحدثت عنه
بعض المصادر حين تناقلت نبأ خروج 32 ألف جمل، منها محملة بالملاح 20 ألف
منها لأهل (شنقيط) و12 ألف لأهل (تشتيت) بيعت في مدينة "زارا" فتعجب الناس
منها⁵، وهذا الرقم نعتقد أنه مبالغ فيه إلى حد كبير حسب المنطق، وعلى الصعيد
الثقافي عرفت (شنقيط) نهضة علمية واضحة المعالم ابتداء من القرن السابع
عشر الميلادي، ثم بلغت أوج ازدهارها خلال القرنين المواليين، وهي الفترة التي

¹ ولد بيه، محمد المحجوب، موريتانيا جذور وجسور، مرجع سابق، ص 59.

² النحوي، الخليل، بلاد شنقيط موريتانيا أرض المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 71.

³ الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط مرجع سابق، ص 413.

⁴ ولد السالم، حماد الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، مرجع سابق، ص 190.

⁵ الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مرجع سابق، ص 413.

منحت فيها اسمها للبلد، نظرا لانطلاق ركب حجاج الصحراء الغربية منها إلى مكة¹، كما اشتهرت بعلماء كبار من بينهم على سبيل المثال: القاضي الطالب محمد بن المختار بن الأعمش، والعلامة الطالب مصطفى ولد الطالب عثمان، والشاعر سيد عبد الله ولد محم المعروف بولد رازكه، وسيد محمد ولد حبيب وغيرهم، مما أهلها لشغل منصب المركز العلمي الأكثر إشعاعا في البلد، وذلك على الرغم من أنها قامت بعد ولاته، وودان، وتشيت، فصارت قبلة لعلماء المغرب، ففي أواخر القرن العاشر هجري وأوائل القرن الحادي عشر الهجري، وصل إليها أحمد الذهبي قادما من تلمسان، وأقام بها حيث كان أول من درس مختصر خليل وترك بها ولدان.²

هكذا إذا ظلت شنقيط وغيرها من الحواضر، شاهدة على ازدهار الثقافة والفكر في ربوع البلاد منذ الفترة الوسيطة، غير أنه بودنا أن نشير إلى جملة من الملاحظات، المرتبطة بهذه المدن وذلك على النحو التالي:

* أنه على الرغم من عدوانية المجال الصحراوي، وشح مياهه ووعورة تضاريسه، وتقلب مناخه إلا أن ذلك لم يمنع الإنسان فيه من إقامة مراكز ثقافية سرعان ما أصبحت تضاهي مدنا في المغرب الإسلامي مثل فاس والقيروان ومراكش في العلم والمعرفة.

* كان للتجارة عبر الصحراء دورا محوريا في قيام تلك المراكز الثقافية، والتي ظلت في تطور مستمر، فانتقلت من مجرد محطات للقوافل بفعل توفرها على نقاط مياه إلى مراكز ثابتة، ثم تحولت إلى مدن مزدهرة بعد أن استوفى بعضها جل شروط المدينة ومميزاتها كالتجارة والسياسة والثقافة، مما يوحي بأن العامل الاقتصادي كان أساسيا في قيام هذه الحواضر، فمن شروط الازدهار الثقافي

¹ ولد أيده، أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة مرجع سابق، ص 179.

² النحوي، الخليل، بلاد شنقيط موريتانيا أرض المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 73.

حصول فائض إنتاجي لأن الثقافة كما يقول ابروديل: "لا تقوم إلا على فائض من الإنتاج، لأنها هي نفسها استهلاك بل هي تبذير".¹
* من الملاحظ أن هنالك تعدد، بل وتضارب في الروايات المؤسسة لكل مدينة، مما تسبب في ظهور إشكاليات متعلقة بالمؤسس وتاريخ التأسيس الحقيقي، وهو أمر نعتقد أنه ناجم عن التحولات المستمرة التي عرفتها هذه المدن بسبب الهجرات المتتالية عليها، فتأتي مجموعة وتقوم بحفر بئر، وتستقر بجواره، ثم سرعان ما تأتي مجموعات أخرى وتنقل معها عادات وتقاليدها الجديدة، وبالتالي تدعي كل مجموعة بأنها هي المؤسسة، فينتج عن ذلك تعدد الروايات، ونكون أمام طبقات رسوبية من المؤسسين، الأمر الذي يؤدي أحيانا إلى وجود صراعات داخل هذه المدن، حول من يحق له أن يكون صاحب الكلمة فيها.

فالروايات المؤسسة دائما تركز على شخص أو أشخاص شرفاء صالحين قدموا من الحج ولهم حظ من العلم والمعرفة، وذلك من أجل إضفاء نوع من الشرعية على وجودهم، كما لا حظنا أيضا أنها – أي الروايات- كثيرا ما تعمل على التقليل من شأن السكان الأصليين الذين وجدهم المؤسس أمامه، فتنتعهم بشيء من الدونية، ومثال ذلك نجده في الروايات المتعلقة بتأسيس كل من تيشيت التي قامت على أنقاض "شيتو" القرية السونوكية الوثنية الصغيرة، وكذلك الأمر بالنسبة لولاته التي قامت على أنقاض "بيرو"، بينما ستظهر "شنقيط" على حساب "آبير" التي كان خرابها حسب تعبير صاحب الوسيط إعمارا لشنقيط، تماما كما كان خراب "بيرو" عمارة لولاته حسب ما يرى "هاوداس" في ترجمته لتاريخ الفتاش "أن بيرو هي نفسها ولاته"²، وتجدر الإشارة إلى أن الهوية الثقافية

¹ ددود، عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، حتى نهاية القرن الثاني عشر (18م)، مركز الدراسات الصحراوية، دار ابي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2015، ص 74.

² رجال بو بريك، المدينة في مجتمع البداوة، التاريخ الاجتماعي لولاته خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، معهد الدراسات الإفريقية 2002، ص 11.

لهذه المدن ظلت في تحول مستمر، وذلك لأسباب بيئية وتاريخية، فالأولى تؤثر في نمط العيش، خاصة إذا ما تذكرنا أن المناخ كان له دور كبير في التأثير في هذا الجانب، فاختلاف خطوط تساوي المطر يؤثر في البيئة، والبيئة تؤثر على الإنسان الذي يتفاعل معها، أما العوامل التاريخية المؤثرة على الحياة الثقافية في هذه المراكز، فقد تمثلت في تغير الأنظمة السياسية ناهيك عن الهجرات المختلفة سواء تلك التي انطلقت من الصحراء أو عبرتها أو جاءت إليها.

* تضافرت عوامل عديدة أدت في نهاية المطاف إلى تراجع المراكز الثقافية السالفة الذكر من أهمها: تغير مسالك التجارة الصحراوية، بسبب الحضور الأوروبي الذي نجح في مركزة التجارة على السواحل الأطلسية أو على النهر، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل: الحروب الأهلية التي أحدثت انشقاقات اجتماعية على إثرها تأسست مدن جديدة مثل: أوجفت وأطار ... ناهيك عن دور التغيرات المناخية، وهشاشة الوسط البيئي الذي دفع سكان هذه الحواضر أو معظمهم إلى النزوح صوب مناطق أخرى أكثر ملائمة للاستيطان. ولئن كانت تلك العوامل وغيرها قد ساهمت في تراجع المدن، إلا أنها أيضا ساهمت بشكل أو بآخر في انتشار الثقافة العالمية بمؤسساتها المختلفة عبر المجال الموريتاني، وذلك نظرا لوصول منتجها (فقهاء، علماء) إلى مواطن جديدة، فما هي روافد تلك الثقافة، وما ذا عن تياراتها؟

3- روافد وتيارات الثقافة الشنقيطية العالمية:

يعد مفهوم الثقافة بشكل عام من بين المفاهيم التي أخذ الحديث عنها حيزا معتبرا من أعمال المفكرين والفلاسفة، مما أدى إلى تعدد وجهات النظر المتعلقة بتحديدده بشكل دقيق، فالبعض ينظر إلى الثقافة باعتبارها محصورة في الجانب العلمي والفكري، بينما يضيف البعض الآخر إلى هذا الجانب بعدا متعلقا بنمط العيش والعادات والتقاليد والمعتقدات، وذلك حسب وجهة نظر الأنثروبولوجيين الذين نظروا إلى الثقافة نظرة أكثر شمولية، بمعنى أنها تعني كلما أنتجه الإنسان، وما نريد الإشارة إليه في هذا المقام هو أننا لن نخوض في تلك

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

المسائل بقدر ما سنتناول الثقافة الموريتانية في بعدها العالم، أي المتعلق بالجانب العلمي والفكري ومرجعياتها، وروافدها، فمن الواضح أن الثقافة العالمية في موريتانيا لم تكن صناعة محلية، وإنما تم استيرادها على ما يبدو من جهات ومناطق مختلفة، تمثلت أساسا في مصر والمغرب، والحجاز، وذلك ما دلت عليه الأسانيد والمتون الفقهية التي تم تداولها في المنطقة، فضلا عن الإجازات العلمية، بيد أن ذلك لا يعني البتة أن العلماء الشناقطة لم تكن لهم بصمة في صناعتها، بل سيقومون بإدخال تحسينات عليها عن طريق الأنظمة والشروح والمختصرات والتعليق، وقبل أن نطيل النفس في إعطاء تفاصيل عن روافد ومرجعيات تلك الثقافة، نشير إلى أن هنالك عوامل عدة سهلت من عملية التواصل بين البلاد وبقية المناطق وهذه العوامل هي:

التجارة: يلف الغموض البداية الفعلية للعلاقات التجارية بين الصحراء وبقية المناطق، حيث لم تظهر بشكل منتظم إلا مع دخول الإسلام الذي عزز العلاقة بين الصحراء وجوارها، وذلك بواسطة مراكز تجارية مختلفة، كان لها الفضل في جذب التجار والتجارة من مناطق متعددة، وذلك ما نستنتجه من مقولة البكري في سياق حديثه عن ساكنة "أوداغست"¹ وسكانها أهل إفريقية، و برفجانة، ونفوسة، ولواتة وزناتة و نفزاوة²، وبذلك تكون التجارة عاملا مساعدا على التواصل بين الصحراء والمناطق الأخرى.

دخول الإسلام: لم يصل الإسلام إلى المنطقة دفعة واحدة، وإنما مر بجملة من المراحل، كانت بداياتها مع حملات عقبة وأحفاده، حيث "استطاع عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع.. أن يتم ما بدأه جده عقبة، فعبر جنوده الصحراء لأول مرة، ونشروا الإسلام في ربوع صنهاجة.. الضاريين في جوف

¹ مدينة مندثرة تقع أطلالها في الشرق الموريتاني.

² البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ص

الصحراء، كما أقام سلسلة من الآبار تصل بين واحات إفريقيا وأوداغست بصحراء المغرب الأقصى¹، مما حقق نقلة نوعية في العلاقة بين الصحراء وبلاد المغرب.

رحلات الحج: لم تقف ظروف وقلة وسائل السكان دون أداء فريضة الحج، حيث ظل الشناقطة حريصون على القيام بها "فتشكلت منذ قرون ركاب حج شنقيطية وسودانية محكمة التنظيم على مستوى بنيتها البشرية ومواردها المالية وعلمائها ومرشديها وفقهائها المعنيين بالنوازل التي تعترض الحجاج"² بين الفينة والأخرى، وقد لعبت قوافل الحجاج التي قدمت من غرب الصحراء لأداء فريضة الحج، دورا محوريا في التواصل الثقافي بين بلاد شنقيط، وباقي الأمصار العربية³، هذا بالإضافة إلى أن سعي العلماء الشناقطة إلى تحصيل العلم والظفر بالإجازات قد دفعهم إلى القيام برحلات علمية متعددة، زادت من متانة ذلك التواصل، مما أدى إلى تسرب الثقافة العالمة في شكلها الخام قادمة من روافد ومنابع من أهمها:

الرافد المصري: فقد ساهم حضور العلماء الشناقطة في المشرق، لأداء فريضة الحج والحصول على الإجازات العلمية، في التقاءهم بالعلماء المصريين والاستفادة من معارفهم، وخاصة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حيث كانت سمعة العلماء المصريين تغطي أرجاء العالم الإسلامي، وبالإضافة إلى ذلك كان لبعضهم اهتمام خاص بالغرب الإفريقي، ومن هؤلاء عبد الرحمن السيوطي الذي استقبل سلاطين المنطقة وفقهاءها وأجازهم وراسلهم⁴، وقد عرفت هذه الفترة إقبالا للعلماء الشناقطة من مختلف الحواضر الصحراوية

¹ عبد اللطيف دندش، عصمت، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988، ص 40

² ولد السالم، حماد الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 81.

³ نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

⁴ دودو، عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، مرجع سابق، ص 74.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

صوب المشرق، فمن (تمبكتو) رحل إلى المشرق أحمد بن عمر "أوقيت"، وقد أورد أحمد باب التمبكتي رحلته، فقال: "أخذ العلم عن جده لأمه، وكان قاضي تمبكتو، وعلى أهل ولاته ...، ثم ارتحل للمشرق فحج ولقي السيوطي، وخالد الأزهرى، وغيرهم"¹، ومن الأوقيتين أيضا رحل إلى المشرق والد أحمد باب التمبكتي، وقد أورد صاحب فتح الشكور رحلته في إطار ترجمته له، فقال ما نصه "أخذ عن عمه بركة عصره محمود بن عمر وغيره، ورحل للمشرق فحج وزار، واجتمع بجماعة، كالناصر "اللقاني"، والشريف يوسف تلميذ السيوطي، والأجهوري، والتاجوري..."²، ومن مدينة شنقيط رحل إلى المشرق عبد الله ابن محمد الملقب قاضي شنقيط، في بحر القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، ولقي علي الأجهوري³، ومن ولاته حج أحمد بن اند عبد الله الولاتي، وقد أورد صاحب فتح الشكور حجه فقال: "حج في ركب من أهله، ولقي رجالا من صناديد العلماء أخذ عنهم وعفا اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"⁴، فبواسطة هذه الرحلات وغيرها، انتقلت الأسانيد المصرية إلى بلاد شنقيط بحواضرها المختلفة، ولعل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي هو أقدم الفترات التي عرفت انتقال الأسانيد المصرية للمنطقة، فخلال هذه الفترة حصل تواصل بين العلماء الشناقطة، والمصريين دل عليه كتاب "مطلب الجواب في فصل الخطاب" لمؤلفه محمد بن محمد اللمتوني

¹ التنبكتي، أحمد باب، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2013، تحقيق د. حماد ولد السالم، ص 123-131.

² البرتلي، الطالب محمد ابن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، مركز انجيبيويه للمخطوطات وخدمة التراث 2010، تحقيق د. عبد الودود ولد عبد الله ود. احمد جمال ولد الحسن، ص 56.

³ ولد السالم، حماد الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، مرجع سابق، ص 123.

⁴ البرتلي، الطالب أحمد ابن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، مصدر سابق، ص 86.

التكروري، وهو عالم مصلح عاش في القرن التاسع الهجري، وتوفي في النصف الأول من القرن الموالي، والمؤلف المذكور يحتوي على 102 نازلة كانت عبارة عن أسئلة طرحت كتعبير من صاحبها على رفضه للحالة التي كان يعيشها المجتمع، وتم توجيهها للسيوطي بمصر، فرد عليها بكتاب سماه "الجواب المبرور للأسئلة الواردة من بلاد التكرور"، وهو موجود ضمن "الحاوي للفتاوي للسيوطي". ويؤكد صاحب فتح الشكور حضور الأسانيد المصرية في الحواضر الشنقيطية، وذلك في سياق ترجمته لمحمد بابا ابن محمد أمين ابن حبيب حين قال ما نصه "قرأ على الفقيه "مغيا" جملة مختصر خليل، وسمع الباقي على الفقيه محمد بن كري.. وسمع مائة التوضيح على ابن حجاب.. وسمع الموطأ والمدونة على الفقيه عبد الرحمن ابن أحمد المجتهد"¹، كما نجد أن الفقيه سيد محمد بن أحمد ابن أبي بكر الوداني، قد شرح مختصر خليل في كتاب سماه: موهوب الجليل بشرح مختصر خليل، ومن بين العلماء الذين عملوا على نشر الأسانيد المصرية أيضا، نقلا عن السند التمبكتي: سيد أحمد أيده القاسم الوداني الذي ذكره صاحب فتح الشكور قائلا: "كان رحمه الله تعالى أستاذا فاضلا، فقيها.. أخذ عن الفقيه الجليل سيد أحمد الفزاري.. الذي أخذ عن الفقيه الجليل أبي العباس أحمد المسك"²، وبذلك أصبح سيد أحمد أيده القاسم شيخ شيوخ الفقه في الصحراء، حيث أخذ عنه الفقيه أبو محمد الحاج عبد الله بن الفقيه محمد الشنقيطي، وأبو العباس سيد أحمد ابن الحاج الشنقيطي، كما أخذ عنه فقهاء من ولاته وغيرها من الحواضر. وعلاوة على الدور الذي لعبه الرافد المصري في الثقافة الشنقيطية العالمة وجدت روافد أخرى من بينها الرافد المغربي.

الرافد المغربي: لم يكن الرافد المغربي أقل أهمية بالنسبة للثقافة الموريتانية العالمة من سابقه المصري، فالعلاقة بين بلاد شنقيط والمغرب الأقصى ضاربة في

¹ البرتلي، الطالب أحمد ابن أبي بكر الصديق...، المصدر السابق، ص 197.

² نفس المصدر السابق، ص 78-79.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

القدم، حيث نجد أنه وخلال القرن الخامس هجري الحادي عشر ميلادي. قدم عبد الله ابن ياسين من منطقة السوس الأقصى رفقة الأمير الصنهاجي يحي بن ابراهيم الكدالي، وكان عبد الله بن ياسين أول معلم بالصحراء، ولعب دورا أساسيا في قيام الحركة المرابطية، حيث تولى قيادتها الروحية، وأرسى دعائم المذهب السني المالكي في عموم المنطقة، وبعد ذلك قدم علماء مغاربة نحو البلاد أسهموا بشكل كبير في نشر العلوم الدينية، وهو ما أشار إليه ولد حامدون في سياق حديثه عن عودة أبي بكر بن عمر الثانية إلى الصحراء فقال: "ولما رجع إلى الصحراء استصحب معه من "أغمات" الإمام أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي ت.489 هـ، و استصحب معه أيضا إبراهيم الأموي معلما للفقه، وقاضيا في مجلس الأمير¹، وهكذا ظل العلماء يتوافدون من المغرب صوب البلاد حتى عهود متأخرة، وهو أمر سبقت الإشارة إليه في سياق الحديث عن الهجرات العالمية، ودورها في تأسيس الحواضر العلمية في الصحراء، حيث أدى تلامذة القاضي "عياض السبتي" الدور الأبرز في قيامها مثل: الشريف عبد المؤمن التيشيتي (مؤسس تيشيت)، والحاج عثمان الأنصاري، والحاج يعقوب القرشي، والحاج علي الصنهاجي مؤسسو وادان، فضلا عن الشاب الشاطر الذي تذكر الرواية الشفهية أنه قدم إلى "شنقيط" خلال القرن الحادي عشر الهجري ، السابع عشر الميلادي، وتخرج على يده بعض كبار علمائها. وفي المقابل حدثت هجرة عكسية قام بها بعض العلماء الشناقطة، الذين أبوا إلا أن يسجلوا حضورهم في المغرب يوم " كانت الحواضر العلمية في المغرب الأقصى مركز جذب أساسي للشناقطة، كما يظهر من تردد أسماء المسندين المغاربة، من أمثال عبد الرحمن بن القاضي، وأحمد العطار وأحمد الجرسيفي وأحمد بن يعقوب الوالي، وكان لبعض الشيوخ المغاربة تأثير خاص اجتذب كثيرا من الشناقطة²، وذلك بفعل عوامل منها القرب

¹ ولد حامدون، المختار ، الحياة الثقافية في موريتانيا، مرجع سابق، ص 5.

² ددود، عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، مرجع سابق، ص 73-74.

الجغرافي، وكذلك البعد الصوفي، ومن بين العلماء الشناقطة الذين سافروا إلى المغرب: عبد الله بن محمد بن رازكه الذي "قدم إلى المغرب فاتصل بأمر المؤمنين مولاي إسماعيل رحمه الله، وكان ذلك وقت نبوغ محمد بن مولاي إسماعيل .. فكان من خاصته، وكان يكرمه ثم يعود بن رازكه إلى بلاده، فإذا تذكر ذلك الإحسان تتصاغر عنده الصحراء وأهلها، فيرجع إلى الحضرة السلطانية"¹ حسب ما ذكر صاحب الوسيط، وكذلك سيد أحمد الشواف بن حبيب الله بن أحمد بن حبيب الله الوداني الحاجي، الذي ذكر صاحب فتح الشكور أنه "أخذ المصافحة والمشابكة، سلسلة عن شيخه أحمد ابن محمد بن خالد الجرسيفي قائلا: كما صافحني وشابكني، وأضافني بالأسودين الماء والتمر"²، ومنهم كذلك لمجيدري بن حبيب الله، الذي قام برحلة شملت حواضر المغرب الأقصى ومصر والحجاز، وكانت له صلوات وثيقة بالسلطان العلوي محمد بن عبد الله (ت. 1206 هـ 1790 م)³، ومنهم أيضا العلامة سيد عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي الذي زار فاس، وبها نال حظوة عند السلطان في ذلك العهد، فأطال مكثه بالمغرب مدة طويلة قبل أن يعود إلى البلاد محملا بمعارف متعددة في الأصول والفقه وعلوم الدين، وعمل على إذاعتها في البلاد، وبواسطة تلك الزيارات المتبادلة بين علماء المنطقتين، انتقلت الأسانيد المغربية إلى البلاد، ففي مجال القراءات وجدت إجازات في قراءة الإمام نافع، حيث أورد صاحب فتح الشكور "أن الفقيه محمد بن الحاج عثمان بن سيد الطالب الصديق الجماني، قد أجازه محمد بن المختار بن الأعمش في قراءة الإمام نافع، التي أخذها الأخير عن المختار بن سيد محمد عن الإمام المحقق أستاذ المغرب... أبي زيد عبد الرحمن ابن القاسم ابن القاضي الفاسي"⁴، كما تم

¹ الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مرجع سابق، ص 4.

² البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. مصدر سابق، ص 88.

³ ددود، عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، مرجع سابق، ص 181.

⁴ البرتلي، الطالب محمد ابن أبي بكر الصديق، مصدر سابق، ص 204.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

تداول كتاب "الشفاء بتصريف حقوق المصطفى" صلى الله عليه وسلم، للقاضي "عياض السبتي" رحمه الله، وذلك "نقلا عن الحاج عبد الله بن محمد بن أحمد بن عيسى المغربي، عن الإمام الحافظ ذي التصانيف العجيبة أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي"¹، وكذلك كتاب القاموس المحيط الذي يرويهِ المصطفى بن الكحيل الشنقيطي عن سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي - ناقل السند الفاسي عن سيد محمد ابن الحسين البنائي"²، وفي مجال التصوف أورد صاحب فتح الشكور، أن الطالب سيد أحمد التواتي المتوفى 1138هـ، أخذ الطريقة الصوفية الناصرية عن شيخه سيد أحمد بن عبد القادر عن الشيخ سيد محمد ابن ناصر الدرعي³، ويرى الدكتور محمد المختار ولد أباه أن حركة الثقافة في بلاد شنقيط انطبعت أساسا بطابع أندلسي مغربي، واستدل على ذلك بالمصنفات المتداولة في اللغة وعلوم القرآن والفقه.⁴

وعموما فقد ساهم الرافدان المغربي والمصري بشكل كبير في رسم ملامح الثقافة الشنقيطية العالمية، وعلمهما اعتمدت المحظرة في بث المعارف المختلفة⁵، وأما الرافد الحجازي فقد اختصر دوره في الثقافة الشنقيطية على ما يبدو على الإجازات العلمية التي كان فقهاء البلد يحصلون عليها في مجال علم الحديث، فقد أورد صاحب فتح الشكور أن ابن الأعمش قد حصل على إجازة في صحيح البخاري من "الشيخ الإمام عالم المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام، الشيخ المحقق المجاور أبي إسحاق إبراهيم بن حسن بن شهاب الدين الكردي

¹ البرتلي، الطالب أحمد ابن أبي بكر الصديق...، المصدر السابق، ص 209.

² ولد السالم، حماء الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، مرجع سابق، ص 122.

³ البرتلي، الطالب محمد ابن أبي بكر الصديق، مصدر سابق، ص 83-84.

⁴ النحوي، الخليل، بلاد شنقيط موريتانيا أرض المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 186.

⁵ نفس المرجع السابق، ص 190.

الكوراني الشهرزوري"¹، ونتيجة للتفاعل الذي حصل بين المجال الموريتاني، والمناطق الأخرى أصبحت البلاد أمام ثقافة عالمية تعددت مذاهبها وتياراتها الفكرية، فكان من أبرزها ما يلي:

المذهب المالكي: نسبة إلى مالك بن أنس رضي الله عنه إمام دار الهجرة، وقد وصل هذا المذهب مبكراً إلى الأندلس على يد الغازي ابن قيس - الذي كان مؤدباً في قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل - وكان يحمل موطأ الإمام مالك وقراءة نافع المدني²، ومن الأندلس انتقل المذهب المالكي إلى المغرب مع قدوم الإمام الشريف إدريس ابن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية، وكان يكن الحب والتقدير لمالك بن أنس ويقول "نحن أحق بإتباع مذهب مالك وقراءة كتابه"³، ومن المغرب عبر مذهب مالك إلى بلاد شنقيط (موريتانيا)، وبدأ يأخذ الغلبة والسيطرة هنالك منذ الحقبة المرابطية، وهو ما أشار إليه البكري في سياق حديثه عن بداية الحركة المرابطية حين قال: "وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربع مائة بدعوة الحق، ورد المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة متمسكون بمذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه"⁴، وتعتبر الكتب والأسانيد المتداولة في البلاد منذ فترة طويلة خير دليل على مكانة المذهب المالكي وسيطرته، ومن بينها على سبيل المثال "مختصر الأخضرى" الذي شرحه كل من الحاج أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي في كتابه "المفيد" والناطقة الغلاوي في كتابه "الأزهري على الأخضرى"، كما تم تداول مؤلفات أخرى مثل "المرشد المعين" الذي شرحه علماء من بينهم أحمد بن الطالب محمود بن أعمر في كتاب سماه "هداية الأمين في شرح المرشد المعين"، كما تم تداول "الرسالة" لا بن أبي زيد القيرواني، وشرحها الطالب أحمد ابن أبي

¹ البرتلي، الطالب محمد ابن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. مصدر سابق، ص 207.

² النحوي، الخليل، بلاد شنقيط موريتانيا أرض المنارة والرباط، مرجع سابق، ص 185.

³ نفس المرجع السابق، ص 188.

⁴ البكري، أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مصدر سابق، ص 163.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

بكر الحاج عبد الرحمن البرتلي في كتابه "مرشد الطالبين"، وشرحها أيضا سيد عثمان بن أعمر بن سيداتي اليونسي بشرحين هما: "باكورة مذهب مالك" وهو المطول، و"مغني التلامذة" وهو الموجز، بينما نظمها علماء من بينهم عبد الله بن الحاج حماد الغلاوي، ومن المتون المتداولة أيضا، مختصر خليل الذي شرحه رجال من بينهم محمد بن أبي بكر الحاجي الوداني في كتابه "موهوب الجليل"، والطالب أحمد بن محمد رارة التنواجيوي في طرته المسماة "الراية" وعبد المالك بن النفاع الداوودي في حاشيته المسماة "بالتيسير والتسهيل"، وشرحه الشيخ سيدي الكبير في كتابه "مرآة النظر في وجوه خبايا المختصر"، وكذلك محمد بن محمد سالم المجلسي في كتابه "اللوامع الدرر في هتك أستار المختصر"¹، مع العلم أن مختصر خليل كان من أهم المتون المتداولة في البلاد، حيث تمثل فقهاء البلد مقولة ابن شمس الدين اللقاني "نحن قوم خليليون فإن ضل ضللنا"²، وعلاوة على المؤلفات المالكية السالفة الذكر تم تداول مؤلفات أخرى مثل "تحفة الأحكام" لابن عاصم القرناطي، و"لامية الزقاق" في القضاء.

ولعل وهذا ما دفعنا إلى القول بأن الثقافة العالمية في البلاد لم تكن صناعة محلية، بقدر ما هي مستوردة من الخارج لكن تمت إضافة تحسينات عليها، وأعيد ترميمها عن طريق هذه الشروح والمختصرات والتعليق والأنظمة، وتجدر الإشارة إلى أن المذهب المالكي قد ذاع صيته في هذه الربوع بفعل عوامل من بينها: وجود سلسلة علاقات كانت بمثابة قاعدة خلفية لتوفير الدعم له، امتدت على ما يبدو من القيروان حيث أبو عمران الفاسي مرورا بالمغرب حيث وجاج بن زلوالمطي، ناهيك عن تلمسان بالجزائر التي كانت حسب ما ذكر البكري "دارا للعلماء والمحدثين، وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله"³، ولم تقف عوامل

¹ ابن حامدون، المختار، الحياة الثقافية في موريتانيا، مرجع سابق، ص 6-7-8-9-10.

² ددود، عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، مرجع سابق، ص 76.

³ البكري، أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مصدر سابق، ص 77.

التمكين للمذهب المالكي حسب ما نعتقد عند قاعدة الدعم تلك، بل انضافت إليها عوامل أخرى، كوجود قوة سياسية مركزية ممثلة في الدولة المرابطية التي تبنته ودافعت عنه بكل ما أوتيت من قوة، حيث تشير بعض المصادر إلى أن صنهاجة أهل المنطقة السابقين اعتنقوا المذهب المالكي، وتعصبوا له وذلك ما نلتمسه من مقولة البكري السابقة "وهم (صنهاجة) على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس" كما أن الهجرات العالمة التي سبق منا ذكرها قد ساهمت بشكل كبير في نشر المذهب المالكي، فأُسست مراكز ثقافية ظلت وفيه له مشكلة بذلك جدارا قويا لن يكون من السهل على المذاهب أو التيارات الأخرى اختراقه بسهولة، بل زادت العلاقة القوية بين التجار والفقهاء من تقويته باعتبار أن طبقة الفقهاء هي المسؤولة عن توفير الحماية الروحية للتجار وأموالهم، التي غالبا ما يتم وضعها عند قبر فقيه أو داره الأمر الذي منح الفقهاء مكان عليا في المجتمع، ساهم في هيمنة الخطاب الفقهي على غيره من جهة، وجعل من منتجيه مرجعية لا يجوز الطعن فيها ولا الخلاف عليها، بيد أن ذلك الجدار الأنف الذكر سرعان ما بدأ بالتشقق والتصدع حين دخل تيار الصوفية مع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، بمفهومه الطرائقي بعد أن كان محصورا في السابق في دائرة ضيقة من العلماء، فكان ذلك بمثابة مؤشر لبداية تحول في الساحة الفكرية في البلاد، ظهرت بموجبه طرق صوفية متعددة.

التصوف: عرفت البلاد طرقا صوفية مختلفة، تعتبر الشاذلية والقادرية من أقدمها حضورا، وإن كانت الشاذلية أقل انتشارا نظرا لنخبويتها، وقد وجدت منها فروع هي: الناصرية نسبة إلى سيد محمد ابن ناصر الدرعي، ودخلت إلى البلاد على يد اشفع الخطار المتوفى 1196هـ. الذي أخذ عن سيد أحمد التواتي عن سيد أحمد ابن عبد القادر عن ابن ناصر الدرعي، و من فروعها أيضا القطفية، نسبة إلى الشيخ محمد الأقفظ الداوودي الجعفري¹، وأما الطريقة القادرية، فقد ذاع

¹ ولد حامدون، المختار، الحياة الثقافية في موريتانيا، مرجع سابق، ص 94.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

صيتها في الجزء الجنوب الشرقي من البلاد على يد علماء، نذكر منهم الشيخ سيد المختار الكنتي المتوفى 1226هـ، وكذلك الشيخ محمد فاضل بن مامين القلعي المتوفى سنة 1286هـ، وإلى هذا الأخير تنسب الطريقة القادرية الفاضلية التي انتشرت على يد أبنائه ماء العينين المتوفى 1328 هـ، والشيخ سعد أبيه المتوفى 1335 هـ.

وزيادة على الطريقتين الشاذلية والقادرية، عرفت البلاد الطريقة التيجانية التي جاءت متأخرة على يد الشيخ محمد الحافظ العلوي المتوفى 1247 هـ، حيث أخذها عن الشيخ أحمد التجاني بفاس، وعنه انتشرت بإفريقيا الغربية، كما انتشرت على يد الشيخ الحاج عمر الفوتي في السنغال.¹

وبودنا أن نشير إلى أن التصوف في بداياته كان قد تميز بمجموعة من المميزات، منها اهتمام رواده الأوائل بالعلم والورع، لدرجة يمكننا معها أن ننتع تصفوهم بالسني، وذلك ما أعطاهم مكانة كبيرة في المجتمع، خفضت من منسوب التوتر بينهم مع الفقهاء أحيانا، كما أن رجيل المتصوفين الأول كان يعطي الأولوية للتبحر في العلوم الشرعية، وينصح بذلك من يرغب في الحصول على الأوراد، وفي ذلك يقول الفقيه محمد يحيى الولاتي المتوفى 1330هـ

خل المشايخ قد عدك زمانهم **** إياك فاحذر باهم أن تقرعه
واعكف على طلب العلوم محررا *** من ماجد كشف الغوامض أرهقه
قد ميز الخبر الصحيح وضده *** ومقيد الشرع العزيز ومطلقه
هذا الذي ترجى مشيخته وذا ** هو الذي عرف السبيل وحققه
أما التصوف دون علم سابق *** فهو الجهالة والهوى والزندقه
ولعل أهم نقلة قدمها التصوف في الثقافة الموريتانية العالمية، تلك التي تكمن في الجدل الذي حصل بين رواده وبعض الفقهاء من غير أتباع تلك الطرق، مما انعكس بشكل إيجابي على الساحة الثقافية والفكرية وخاصة الشعر والنثر

¹ نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

الذين استخدموا كسلاح في تلك المواجهة، وفي هذا السياق يقول الشيخ ابن حنبل الحسني المتوفى 1300 هـ

يا خائضين بحور العلم مسألة *** عنها أجيئوا بأفهام زكيات
عن اشتغال شباب العصر جلهم *** عن العلوم بأوراد سنيات
أهذه نعمة في الدين نشكرها *** أم هي في ديننا إحدى المصيبات
فقال عبد الله بن مختارنا الحاجي المتوفى 1330 هـ
الورد يا خل ذكر والدوام على *** ذكر المهيم من أسنى الميزات
لكن الأغلب في ذي الورد أزمنا *** ترك التعلم مع تأخير الأوقات
وربما كان بالتعلم مشتغلا *** وضم للعلم أورادا سنيات
فهذه نعمة في الدين نشكرها *** وتلك في ديننا إحدى البليات.¹

وعلى الرغم من تعرضه أي التصوف لانتقادات دفعت البعض إلى نعت أصحابه بمجانبة منهج السنة والجماعة، إلا أنه حجز مكانة في الثقافة العربية الإسلامية، ومثل حيزا من أحوازها الثلاثة، فلئن كان التوحيد يعنى بالعلاقة بين العبد وربّه، والتشريع يختص بالعلاقة بين الأفراد، ومعاملاتهم مع بعضهم، فإن التصوف يجعل العبد يعيش مع الله، فكل سلوكه يحسبه لحظة فعله تقربا إلى الله، وبالتالي فهو يعود النفس على الابتعاد عن الرذائل وتزكيتها، وذلك عن طريق الإكثار من القربات والعبادات، وقد أصبح منذ القرن العاشر هجري يمثل تيارا فكريا له وزنه داخل المجال الشنقيطي الموريتاني، بل وفي جواره، كما أنه يعتبر مؤشرا من مؤشرات التحول الفكري داخل البلاد، مؤشرات لم تقتصر على ظهور التصوف فحسب، وإنما تجاوزت بنية تلك الثقافة لتطال سياقاتها الاقتصادية والاجتماعية بل وحتى المؤسسية، وذلك ما بدا أكثر وضوحا خلال القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، فعلى المستوى الاقتصادي والاجتماعي، حدث انقلاب في الموازين التجارية كانت بواكيره الأولى مع تمركز البرتغاليين على

¹ ولد حامد، المختار، الحياة الثقافية، مرجع سابق، ص 95.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

الشواطئ وبناءهم مركز آركين، ثم أصبح هذا الانقلاب واضح المعالم بعد أن حسم الصراع بين القوى الأوربية المختلفة لصالح الفرنسيين، الأمر الذي أدى إلى تراجع مكانة المراكز الثقافية الصحراوية بفعل تحول مسالك التجارة، مما انعكس سلبا على مكانة الفقهاء المادية، الذين سبقت منا الإشارة إلى ارتباطهم الوثيق بتلك التجارة، مما حدى بهم إلى الهجرة نحو الأرياف والمدن الثانوية¹ وستزداد حركة انتقالهم من المدن إلى الريف خلال القرن الحادي عشر الهجري وتاليه الثاني عشر، حينما ظهرت مؤسسات للتعليم الإسلامي تعتمد على الزراعة كقاعدة اقتصادية²، أو على عائدات التجارة الأطلسية بدلا من التجارة الصحراوية، فأدى ذلك في نهاية المطاف إلى اتساع دائرة العلماء، بحيث أصبح من السهل على التجار الذين لهم نصيب من معرفة الكتابة العربية أن يلحقوا أنفسهم بها²، فظلت أعدادهم تزداد شيئا فشيئا حتى أصبحوا يشكلون فئة اجتماعية يحسب لها حسابها، وتحتكر السلطة الروحية بلا منازع.

خاتمة:

وكحوصلة لما تقدم يمكننا القول: بأن المجال الشنقيطي سابقا للموريتاني حاليا، لم يمنعه التطرف الجغرافي، أو البعد من مهد الثقافة العربية الإسلامية من المساهمة في إثرائها بل وتطويرها، وهو أمر ساهمت حواضر تاريخية مثل "ولاتة" و "تshit" و "وادان" و "شنقيط" في حدوثه بالفعل، حيث من الملاحظ أن هذه الحواضر، قد بلغت شأوا من الأهمية العلمية لدرجة جعلتها تنافس كبريات المدن الإسلامية في بلاد المغرب، حين أصبحت قبلة لطلبة العلم الذين جاءوها من مختلف الجهات، مما ساهم في عمارتها بالعلم والمعرفة، وجعل منها مع مرور الوقت وعاءا وقالبا للثقافة العالمية بمختلف أصنافها ومجالاتها. وعليه فينبغي الاعتناء بها، وتوفير مقومات الحياة الضرورية حتى لا تكون هي الأخرى عرضة

¹ ددود، عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلادي شنقيط، مرجع سابق، ص 80.

² نفس المرجع السابق، ص 82.

للإندثار والخراب، كما نوصي بالتعريف بهذه الحواضر وتسويق ما تزرع به من إرث حضاري وفكري على المستوى الإقليمي والدولي.

الهوامش والمراجع:

- ولد بيه، محمد المحجوب، موريتانيا جذور وجسور، مكتبة القرنين للنشر والتوزيع، ط1، 2016.

- ولد السالم حماد الله، موريتانيا في الذاكرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

- التمكني، أحمد باب، نيل الابتهاج بتطريز الدباج، تحقيق الدكتور حماد الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 2013.

- البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق د جمال ولد الحسن و دعبد الودود ولد عبد الله، مركز انجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، 2010.

- عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1988.

- ولد حامد، المختار، الحياة الثقافية في موريتانيا، الدار العربية للكتاب، بدون تاريخ نشر.

- ولد السالم حماد الله، تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية، ط1، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

- ولد أيده، أحمد مولود الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2014.

- النحوي الخليل، بلاد شنقيط موريتانيا أرض المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

- الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مؤسسة الخانجي مصر، ط1، 1911.

- ولد أيده، أحمد مولود، مدن موريتانيا الوسيطة، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2001.

دور الحواضر التاريخية في تأسيس الثقافة الشنقيطية العالمية
(ولاته. تيشيت. وادان. شنقيط)

- ددود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط، حتى نهاية القرن الثاني عشر، مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط 2015.
- رجال بوبريك، المدينة في مجتمع البداوة، التاريخ الاجتماعي لولاه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر معهد الدراسات الإفريقية 2002.
- البكري أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي القاهرة.